مسيح باب زويلة

يواصلون سبابه، وقذفه بالطين وبقطع الخضار والفاكهة الفاسدة. يربطونه في عمود حديدي مخصص لربط الحمير والبغال. الماء الراكد الآسن أسفله يتناثر مع حركته المجنونة، ومحاولته اليائسة للهرب. يتعثر في ردائه الطويل، فيهوى على ركبتيه وسط الطين، يسمع ضحكات الناس من حوله تزداد، فيزداد هياجُه وجنونه. الحبل الشائك السميك يدمي معصميه، لكنَّه يواصل الشدَّ دون هوادة. يتلفتُ حوله، فيبتعد عن محيطه الأطفال المتسخون المتناثرون حوله. يزوم وهو يشدُّ الحبل بجنون، يراهم يقتربون منه بأزيائهم الرسميَّة المتأنِّقة. أحدهم يقرأ من مخطوط في يده:

«بأوامر السلطان المُعرف دون اسم، سيتمُّ إعدامُ الشقيِّ الخارج على القانون مخفي الاسم، شنقًا على باب زويلة».

يتنبه أنَّهم لم يذكروا اسمه تأكيدًا على التجاهل والعقاب. نكرة؛ سيذهب دون أن يردد الناس اسمه، أو يتداولوا حكايته. مجرد شقي آخر سيمحى هكذا. كان عقابًا أشدَّ من الشنق. لا يناله سوى المغضوب عليهم بشَّدةٍ من السلطان؛ أنْ يتمَّ محوُ اسْمه هكذا، أن يتحول لمخفي الاسم وسط الناس. ويُجَّرم مجرد ذكر اسمه.

يرى مندوب السلطان وهو يناول النَّاس من سُرَّة نقوده القطيفة الحمراء الفاخرة ريالاتٍ فضَّيةً لامعة، كعطيَّةٍ من عطايا السلطان المُبجل. يُهلل النَّاسُ ويتحمسون لسبابه ومضايقته. يتجمَّعون أكثر ويزدادون بذاءةً وشراسة. يلمحُ صديقه وهو يحاول الاختباء عنه وراء الناس، ينظر له بنظرة دامية قبل أن ترتطم بوجهِه كتلةٌ من الطين العطن.

ينفض رأسه وشعره الطويل المتناثر أمام وجهه، ويواصل التلفتَ حوله وهو يصرخ: «سأصلب كما صُلب المَسيح.. سأذهب وأنا مُعلق فوق رؤوسكم عاليًا وأنتم تحت أقدامي». الناس تواصل الضحك على كلماته وهذيانه. يسمع من بعيد وسط دقات الطبول العالية: «ستشنق يا حمار، لا صلب هُنا».

يواصل هو كأنَّما لم يسمع: «سأنال خلاصي وحدي، سيكون موتي لعنة عليكم إلى يوم الدين».

يبدأون في إبعاد الناس للخلف، ويتأكدون من ثبات الحبل في منتصف السقف فوقه. «سأنال خلاصي وحدي يا أولاد القحاب.. لن أذكركم هناك، ولن أشفع لأحد منكم».

***

ظـلَّ مُعلقًا على بـاب زويلة لثلاثة أيام. متدليًـا، أحيانًا يتأرجح موليًا وجهه المُنكفئ لجميع الاتجاهات.

في اليوم الأول، كان الناس يقفون تحت قدميه يتأملونه، محاولين رؤية وجهه المغطَّى بشعره المتناثر. يتجمع الأطفال أسفله مقلدين إياه، مُرددين ما كان يصرخ به قبل الشنق.

نسـوا سريعًا ما فعله من أجلهم. وقوفه في وجه السـلطان، ورفضه، وكلامه الذي تناقله البصاصون حتى باب القصر. تتأمله النسوة الذاهبات للسوق باعتيادية ولا مبالاة، ويتأمله الرجال في ذهابهم وإيابهم غير شاعرين بأيِّ شيء تجاهه. تبخر كلُّ ما فعله، وأصبح مجرد شـخص لا يجرأون على ذكر اسمه، مُعلقًا كما عُلق مكانه الكثير قبله.

لمحه أحدهم يهتزُّ فصرخ في الناس بأنه حيّ، انتفضوا واقتربوا لرؤيته. كان يتأرجـح مكانه. ظلُّوا يتطلعون له طويلًا دون أن يروا شـيئًا. اتهموا الرجل بالخبال وابتعدوا. في الليل ومع هطول الظلام تنعكس عليه أضواء خافتة قادمة مـن الطريق القريب. يواصل التأرجـح متحركًا بين الضوء الساقط والظلام المتسرب. مرَّ اليوم ولم يفتقده أحد. وسارتْ الحياة أسفله كما كانتْ تسير عبره.

اليوم الثاني، فقد بعض الاهتمام. لم يأت إليه الناس جماعات يتفرجون عليه مثل اليوم السـابق، لم يعـد يحكي الناس في تجمعاتهم عمَّا كان يصرخ به، وما كان يفعله قبل الشنق. اسمه الذي كانوا يهمسون به وهم يتلفتون حولهم، لم يعـودوا يذكرونه. واللصُّ الـذي كان يتطلع لأخذ الحذاء من

قدمه انشغل بأشياء أخرى. حتى تأرجحه قلَّ، وجمد مكانه كأنَّما قد اعتاد الشنق. نُسي سريعًا دون سبب لذلك.

في اليـوم الثالث لم يجـدوه. اسـتيقظوا في الصباح هكـذا فلم يجدوه. بكلِّ بسـاطةٍ كان الحبل المُعلَّق به يتدلَّى وحده فارغًا. تنبه الناس، أشـاروا لبعضهم البعض. وتطلعوا حولهم بتعجب. خافوا من ذكر اسمه.

«لقد اختفى مخفي الاسم».

«ربَّما أنزلوه ليلًا، خافوا أن يُفتن به النَّاس. كان يتحركُ مع الليل، كان حيًّا لم يمت».

«ربَّما نزل هو.. مادام حيًّا.. فربما نزل هو وحده».

ازداد اللغط، والصِّياح، حتى أتى مندوب السلطان. ظلَّ متوقفًا فوق صهوة جواده لم ينزل، وهو يتطلع للحبل المُدلى الفارغ. نظر للنَّاس حوله بنظرةٍ صارمة ميتة، فتراجع النَّاس للخلف. صنعوا حوله دائرة كبيرة يتوسطها الحصان الضخم مـع الفراغ. لم يتكلم أو يعلِّق؛ فقط يتطلع للحبل العالي الخالي. أشار لحارسين أن يظلَّا هنا، وانصرف. ظلَّ النَّاس متجمعين قليلًا، ثم أخذوا في الانصراف.

كان الجوُّ باردًا، لم تشرق فيه الشمس. مُلبدًا بغيومٍ داكنةٍ، وتلوح في الأفق رائحة مطر سرعان ما هطل؛ ليجري الناس للاختباء، ويتجه الحارسـان بسرعة للوقوف أسـفل مدخل البوابة الضخمة تحت الحبل الفارغ المُدلى مباشرة.

***

في اليوم التالي بدأ الأمر.

لم يربط الناس بين ما حدث وبين الاختفاء الغامض إلا متأخرًا. رفض بعضهم ذلك التفسير قليلًا، ثم ما لبثوا أن هزُّوا رؤوسهم إذعانًا للأمر. تلبستهم الحيرة وعدم الفهم، وتكلَّموا طويلًا في الموضوع؛ مرارًا وتكرارًا يرددون نفس الحكاية دون كلل. خفَّت الحركة بالسوق. وتجمع الرجال على نواصي الحارات الصغيرة. وبقيت النِّساءُ بالبيوت مُغلقات الأبواب على أطفالهن بالداخل.

كانتْ رؤيتُهم لحارسَي مندوب السلطان مُعلقين على حبلين مكان مخفي الاسم مخيفة، ومُرعبة. كانتْ وجوهُهم ممسوخة، مرعوبة. تلوحُ عليها صرخةٌ مكتومةٌ لم يشاهدوا مثلها من قبلُ.

فكَّروا أولَ ما فكروا في ردِّ فعلِ السُّلطان، ومندوبه الجبَّار. فكَّروا في انتقامهم لما حدث، فكَّروا في تفسيرٍ لما حدث فلم يجدوا.

جاء المندوب مُدججًا بدزينتين من الجنود المسلحين. انتشروا أمام البوابة الضخمة، وفي الحارات. أنزلوا الرجلين ووضعوهما على صهوتَيْ حصانين، وهتف المندوب بصوتٍ مُخيف: «كلُّ من شارك، أو توَّرطَ فيما حدث هنا، سيُصلى منَ العذاب ما لن يطيقه. كلُّ من شاهد، أو يعرف ما حدث ليتقدم الآن ليتكلم».

سادَ صمتٌ لم يقطعْه سوى صهيل الأحصنةِ المُنتشرة. أدار وجهه الصَّارم في الوجوه المُختبئة حوله، ولم يكرر ما قاله. ظلَّ ينظر لهم بنظرات ناريَّةٍ.

قبل أن يدير صهوةَ حصانِه ويرحل دون أن يتركَ أحدًا خلفه للحراسة، أو التحقيق.

***

كان المعتادُ في حالات الشَّنقِ على باب زويلة؛ أنْ تكون واحدةً وربَّما اثنتين. في حالات قليلة جدًّا كانت مجموعة. كان رجال السلطان يجهِّزون لها الحبال السميكة، ويقومون بتعليقها جيدًا داخل سقف البوابة من الداخل، وتظلُّ الأجساد تتأرجح متخبطةً في بعضها البعض.

وهذا ما وجده النَّاس في الصباحِ التالي. وجدوا ستة رجال معلقين في صفٍّ واحدٍ، متأرجحين متخبطين في بعضهم البعض. كانوا من الذين شهدوا على مخفي الاسم؛ معهم صديق عمره الذي اختبأ منه ولم يدافع عنه. وجوههم مكسوَّةٌ برعب لم يروه من قبل.

لا أحد يعرف كيف ولا متى تمَّ الأمر. على الدوام هناكَ من يكون مستيقظًا في السُّوق. وعسكري الدرب يمرُّ طوال الوقت من أمام البوابة المغلقة ليلًا. من أين أتتْ كلُّ تلك الحبال؟ وكيف اختفى هؤلاء ليلًا دون أن يشعر بهم أحد؟

كان الناس يهمهمون رعبًا بتساؤلات لا إجابة لها، يهمسون بأنَّه هرب من الشَّنق لينتقم من وشايتهم له. هو أخبرهم بأنَّ دمه سيكون لعنةً عليهم إلى يوم الدِّين؛ لم يصدقوه، وتركوا أولادهم يسبونه ويقذفونه بالطين، وقبضوا ريالات فضَّيةً ثمنًا لهذا.

هبط الليل سريعًا. ولم يأتِ حراسُ السلطان، أو مندوبه كما أخبروهم

على بوابة القصر؛ بأنهم سيرسلون لهم مندوبًا للتحقيق، ومعه حراس لحفظ الأمن وحماية الأرواح. ظلُّوا منتظرين، ثمَّ قرروا أنْ يكوِّنوا دورياتٍ للحماية الشعبية مكونةً من رجال الحي، يتناوبون السير في أرجاء الحارات لحماية البيوت من أيِّ اقتحام متوقع، وتركوا أمام باب زويلة –الذي قاموا بإغلاق بوابته الخشبية الضخمة– ستة رجال أشداء.

أشعلوا المشاعل، والفوانيس الكبيرة ونشروها بطول الحارات وأمام البيوت؛ إلا أنَّ الأمطار هَطَلَتْ من جديد، فأطفأت النيران والمصابيح المُعلقة، ودفعت الناس للاختباء في مداخل البيوت، وأسفل التعريشات.

في الصباح، ودون أن تتوقف الأمطار. كان الرجال الستة المُكلفون بحراسة باب زويلة، مُعلقين أسفل منه يتأرجحون، تتساقط المياه والطين من ملابسهم الموحولة، ووجوههم مدموغة برعب لا يوصف.

أسقط في أيدي الناس، تحججوا بالأمطار والبرد. وبأنَّه شبح لا قِبلَ لهم بمواجهته. يتحرك عبر الحوائط دون أن يروه.

عندما ذهبوا لقصر السلطان تحت المطر للاستنجاد به؛ وجدوه قد ضاعف الحراسة على الأبواب، وفوق الأسوار. منعوهم من الاقتراب، وأخبروهم بأنَّهم يحققون في الأمر، وسيوافونهم بأخبار تطمئنهم وتطمئن الرعيَّة. وأنَّ الأمر لا يعدو شقيًا آخر سيتمُّ القبض عليه سريعًا ويُشنق على رؤوس الأشهاد. طمأنوهم ونصحوهم بالبقاء داخل بيوتهم مُغلقين عليهم الأبواب جيدًا من الداخل.

«لا تخافوا من أيِّ شيء فالسُّلطان يسهر لحمايتكم من أيِّ خطر».

عندما عادَ الرجالُ من هناك –وكانوا قد ذهبوا كلّهم ولم يتركوا سوى العجائز والنساء والأطفال– سمعوا الصياح والبكاء عن بُعد. تسابقوا للوصول سريعًا وهم يلهثون. كان مُعلقا أسفل الباب ستُّ نساءٍ عاريات تمامًا، مشنوقات. تبدو الحياة كأنَّما فرَّتْ للتوِّ من أجسادهن الملفوفة. ونساء الحيِّ أسفل منهن يبكين بانهيارٍ وهن يلطمن وجوههن. أسرعوا بإنزالهن لستر أجسادهن العارية. تسلم كلُّ رجلٍ زوجتَه وهو يبكي صائحًا يرتجف، ورحل كلُّ واحدٍ لبيته حاملًا زوجته الملفوفة في ملاءة ملوَّثة. تشيعه صرخاتُ الأطفال، ونساء الحيِّ كله.

وعندما بدأ المطر في الهطول بالليل، لم يتحرك أحد من مكانه هذه المرة، فقط النساء عُدن للبيوت مع الأطفال، وتبقَّى الرجال كلُّهم بالطرقات. تركوا المياه تغمرهم تمامًا دون أن يتكلم أحد، أو ينطق بأيِّ كلمة. وقفةٌ صامتةٌ لا تقطعها سوى أصوات الأمطار الغزيرة من حولهم، الممتزجة برعد بعيد يدِّوي في السَّماء.

كلَّما دوَّى برقٌ أنار المكان لثوانٍ ثمَّ خبا، وخبا معه ضوءٌ منَ الأضواء المتسربة من نوافذ البيوت شبه المغلقة، حتى ساد ظلامٌ دامس، لم ينره حولهم سوى البرق لثلاث مرَّات. وفي كلِّ مرَّةٍ يكتشفون اختفاء أحد الواقفين بينهم. سادَتْ حالة من الذُّعرِ والتخبُّط والرعب والفوضى، جرى كلُّ الواقفين يتلمسون الجدران حولهم، محاولين الوصول لبيوتهم. تعثَّر من تعثَّر، وسقط من سقط، وصرخ من صرخ.

رعبٌ ممتزجٌ ببردٍ ومطر وعويل مخيف لرجال كانوا أشداء منذ أيام قليلة.

النساء بالبيوت سمعن الهرج بالخارج، ولم يفهمن ماذا يحدث. تكوَّرن في ركنٍ بعيدٍ محتضناتٍ أولادهن برعبٍ وفزع. كلَّما حاولن إشعال مصباحٍ أو فانوس، هبَّتْ ريحٌ قويَّةٌ لا مصدر لها وأطفأتِ النار. تكوَّرن في الظلام مستمعاتٍ لصرخات رجالِهن بالخارج دون أن يقدرن على فعلِ شيءٍ سوى البكاء والدعاءِ والارتعاش.

مع أول أضواء النَّهار خرجَتْ أشجعهن لترى ما حدث. كانت الأمطار لاتزال تهطل. الطريق موحل، والنهار لا شيء سوى نور كابٍ بعيدٍ له مذاقٌ بارد. عندما فتحت الباب وخرجتْ لم تجد شيئًا؛ بالأدق لم تجد أحدًا. الكثير من النعال، والطواقي الصوفية الغاطسة في طين الطريق. أطلقتْ أولى صرخاتِها الشبيهة بصراخ حيوان يُذبح. تبعتْها باقي النسوة في الخروج، والنظر حولهن وفهم ما حدث، ثم اللطم والعويل الطويل المؤلم المُحمل برعب لم يعرفه بشر. وعلى البُعد من أنظارهن كانَتْ مئاتُ الحبال تتدلَّى من بُرجي البوابة المغلقة، وعلى السُّور المجاور، وأسفل مدخل باب زويلة.

كان الطريق الطويل الضيق قد امتلأ تمامًا بمياه الأمطار. غطست الأحجار البازلتية العريضة أسفل الماء، الذي ظلَّ يتصاعد لأعلى مع هطول المطر الذي لم ينقطع. تكوَّمت نسوةُ الحيِّ وعجائزه مع أطفالهن في دائرة بالسَّاحة الكبيرة أمام البوابة يَنُحنَ في رعب. عندما رأينه قادمًا من بعيد؛ نفس زيِّه الطويل المنسدل، وشعره الطويل الداكن الذي يغطي وجهه.

لم يتبينوا ملامحه جيدًا لكنهن عرفن أنَّه هو. كان يأتي ماشيًا فوق الماء

دون أن تغطـس قدماه، أو تبتلَّ أطـراف ثوبه، أو يترك أثرًا فوق الماء كأنَّه طائرٌ فوقه.

كان يمسـكُ بيديه صرَّةً حمراء كبيرة من القطيفة الفخمة. اقترب حتى صارَ أمامهن تمامًا، رفع رأسـه لأعلى لتظهر بعـض ملامحه المنحوتة، فرد ذراعيـه جانبه بمحـاذاة كتفيه، وارتفع في الهواء تحـت المطر لأعلى، حتى صار فوق رؤوسـهن تمامًا. فتح الصرَّةَ ببطء وهـو يتمتم بصوتٍ خافت بما لم يسـمعن، فضَّها في كفِّه المفتوح فتناثـرتِ الريالاتُ الفضيَّة اللامعة، ظـلَّ يتطلع إليهن قليـلًا، قبل أن يقومَ بنثر ما بكفِّـه فوقهن وهو يواصل الصعود لأعلى.